حرة
داخل أسوار الحرب

"سلامٌ على أرضٍ لم ترَ يوماً سلاماً"

ولدت عام 1981 وكنت الأصغر بين إخوتي وأخواتي التسعة، نشأت خلال طفولتي في قرية صغيرة، وسط البادية، عائلتي من مدينة أخرى في البادية وكنا نقضي فصل الصيف فيها دائماً، ونسكن باقي العام في منزلنا الأساسي.

لم يكن أبي يعمل في المحطة أو الشركة، كان يملك مع خالي محلاً كبيراً يبيع فيه جميع المستلزمات، وكانا يعتمدان كثيراً على الفترة التي يقضي فيها البدو فصل الربيع بالقرب من المحطة.

بالنسبة لإخوتي، فأذكر الأيام التي عشناها سويةً في منزل أهلي جيداً، أخي الكبير عاد من أداء الخدمة الإلزامية في الجيش وأنا صغيرة، بدأ العمل كمعلم في مدرسة الابتدائية القريبة.

أما أخي الثاني فأذكر غيابه الطويل خلال الدراسة في دمشق وأدائه للخدمة الإلزامية في الجيش، وكان أخي الثالث الأقرب إلينا خاصةً بعد انتهائه من الدراسة الجامعية والعودة إلى منزل أهلي وعمله بالقرب من المحطة.

كان إخوتي وأهلي هم الأقرب إلي، في المدرسة كان لي صديقة واحدة، لكننا كنا نجتمع في المدرسة فقط، عائلتنا متدينة ونحافظ على علاقاتنا العائلية فقط، لم نكن نخرج كثيراً من المنزل، ووالدي كان من النوع الذي لا يسمح لنا بالقيام بزيارات، لذلك كنت أقضي معظم وقتي في المنزل.

عندما وصلت لامتحان الصف التاسع، تفاجأت عند صدور النتائج، فقد رسبت في الصف التاسع ولم يكن هذا متوقعا بالنسبة لي ولعائلتي.

في العام الذي تلاه، وعدني أخي المدرس بمتابعتي أكثر في الدراسة، على أن أتابعها من المنزل، وهنا أصيب بحادث بسيط نتج عنه كسر في قدمه، فشاءت الصدف أن يكون متفرغاً لتدريسي في هذا العام، ونجحت في الشهادة الإعدادية، كان عام 1996 بحسب ما أذكر الآن. هنا قرر أخي الثالث بأن يساعدني على متابعة تعليمي للمرحلة الثانوية في تدمر، وقال بأننا يمكننا الانتقال إلى تدمر كي أستطيع الحصول على الشهادة الثانوية من هناك، إذ لم تكن هناك مدرسة ثانوية بالقرب منّا.

لم يكن الحظ مؤاتياً لإكمال المرحلة الثانوية بسبب ظروف استجدت وتمت بعدها خطبتي وتزوجت وحصلت لاحقا على الشهادة الثانوية وانا في منزل زوجي بعد كل تلك السنين، وعندما أنظر اليوم إلى طفولتي، أحسّ بأنّ أمي كان لها الأثر الأكبر في حياتي، كبرت اليوم لأحس بأني الآن نسخةٌ عنها.

* * * * *

الزواج وبناء العائلة

تزوجت وأنا بعمر السادسة عشرة، وبعدها بعام ولدت كبرى بناتي، كنا أنا وزوجي نسكن حتى ذلك الوقت في منزل أهله، الزواج في عمر مبكر جعلني أعي باكراً الكثير من الأشياء التي لم أكن أفكر فيها كطفلة من بينها مسؤولية العائلة.

بعد أشهر من زواجي، مرض عمي والد زوجي، واضطررنا للانتقال للعيش مهم في نفس المنزل، كان العائلة تعيش في بناء واحد، الأخوة موزعين على الشقق وخالتي وزوجها يعيشان في المنزل الموجود في الطابق الأرضي، وبعد مرض عمي الذي استمر لأشهر قبل أن يتوفى رحمه الله، انتقلنا بعدها للعيش بشكل نهائي في نفس المنزل مع خالتي كي نساعدها ونكون إلى جانبها دوماً، أخذنا غرفة في المنزل لكن دون أن ننقل أثاث غرفة النوم، لم أشعر بالضيق في وقتها لكنني اليوم عندما أتذكر تلك الفترة أستغرب كيف كنت أستطيع احتمال كل ذلك.

استمرت هذه الأوضاع حتى ولدت ابنتي الثانية، هي من مواليد العام 2000، كنت في التاسعة عشرة وقتها، في ذلك العام انتقلنا للعيش في شقة خاصة بنا في بناء العائلة، ومع ذلك كنت اتحمل مسؤولية حماتي لوحدي بالإضافة إلى مسؤولية بيتي، حتى الزيارات التي كنت أقوم بها لمنزل أهلي لم تكن تطول أكثر من يومين أو ثلاثة كي لا أغيب عن المنزل لفترات طويلة، فأنا كنت أحمل مسؤولية كبيرة في ذلك الوقت.

في مدينتنا، لم يكن هناك مساحات عامة لخروج العائلات، مثل الحدائق مثلاً، كما أنّ زياراتنا العائلية اقتصرت دائماً على أخوة زوجي وعائلاتهم، إذ كانوا كما عائلتي منغلقين على بعضهم البعض، وعندما نريد أن نقضي وقتاً للتسلية كنا أنا وزوجات أخوة زوجي نزور بعضنا البعض.

كان زوجي في الفترة الأولى يعمل في دكان صغير، ومن ثمّ تعرض لظرف ودخل السجن لمدة شهر، وبعد ذلك بقي عاطلاً عن العمل لفترة ومن ثمّ وجد وظيفة في شركة الكهرباء، التي بقي يعمل بها حتى خروجنا من سوريا.

لدي الآن أربع بنات وصبي، كلهم يعيشون معنا، حتى بناتي المتزوجات يعشن بالقرب مني.

انطلاق الثورة

لم تتأخر المظاهرات في مدينتنا، لقد انطلقت منذ بداية الثورة، كما أنّ عدد من الأحداث التي حصلت دفعت العديد من الناس الذين لم يشاركوا في البداية إلى الخروج بمظاهرات، من بينها وصول جثمان لشاب كان مجنداً في الجيش وقتل هناك في ظروف غامضة، وتمّ تسليمه إلى أهله، خلال تشييع الشاب خرج جميع الأهالي بمظاهرة كبيرة.

وبعد تلك المظاهرات الكبيرة، أصبح الأمن معزولاً في مقراته نوعاً ما، فلم يعد عناصر الأمن يقتربون من وسط البلدة أو من السوق، فكانت تخرج المظاهرات كل يوم جمعة، واستمر ذلك طوال عام 2011 حتى بداية عام 2012.

في الثاني والعشرين شهر شباط من عام 2012، خرجت مظاهرة كبيرة في ذكرى مجزرة حماة وبدأ اعتصام كبير في البلدة من أجل المعتقلين، ونتيجة إطلاق النار على شباب من المتظاهرين حاصر المتظاهرون مقر الأمن السياسي في البلدة، واقتحمه عدد منهم، لم يكن ذلك مخططاً لكن البعض اقتحم المقر وأخذوا بعض الأسلحة منه، وهو ما أدى إلى دخول الجيش في اليوم التالي إلى المدينة وملاحقة جميع شبان البلدة، الذين حاولوا التواري عن الأنظار طوال شهر آذار، وخلال تلك الفترة عرفنا باعتقال أخوتي وابن اختي، خرج أحد إخوتي بعد شهرين والثاني بعد خمسة أشهر بعد أن دفع والدي الكثير من الرشاوي، عندها عرفنا منهم بما حدث لابن اختي.

ابن اختي هذا كان يعمل مع والده في البناء، وكان يتجنب المشاركة في المظاهرات وإن شارك فيها كان يغطي وجهه، لأنه كان يخاف على أبيه ويريد بأن يظل إلى جانبه خاصةً وأن باقي أخوته يشاركون في المظاهرات من اليوم الأول، كان يقول لنا أريد أن أبقى مع والدي وأرعاه.

في البداية كان الأمن ملتزماً لمقراته، لكن بعد فترة بدأ إطلاق النار على المتظاهرين وسقط شباب منهم، فتقدم المتظاهرون وحاصروا مقر الأمن السياسي، ودخل بعضهم كما ذكرت وأخذوا بعض الأسلحة، في اليوم التالي استيقظنا لنرى الجيش وهو ينتشر في جميع أنحاء المدينة، كنت حاملاً وخاف زوجي من أن أدخل المخاض وقد أغلقت المشفى ولا يوجد أي قابلة قريبة، فطلب مني الذهاب إلى منزل أهلي البعيد نسبياً حيث توجد قابلة هناك في القرية.

ابن أختي كان وعلى الرغم من صغر سنه الذي لم يتجاوز 22 عاماً وقتها، يقوم بمساعدة أي عائلة تنزح نحو مدينتنا، كان يعمل طوال النهار، ويغيب ليلاً يقول لأهله بأنّه يجهز البستان الذي اشتروه في منطقة بعيدة نسبياً عن البلدة، لكن في الحقيقة كان يصرف كل ما يدّخره من عمله ليؤمن العائلات النازحة إلى المنطقة. كل هذا انتهى عندما اعتقل في الشهر الثالث على إثر مظاهرة 22 شباط، ولم نعرف عنه شيئاً حتى اليوم.

عندما خرج أخوتي الإثنين أخبرونا بما حصل معهم، وكيف تمَّ اقتيادهم نحو فرع البادية أولاً ومنه إلى حمص ومن ثمّ إلى دمشق، وبعد اعتقال دام لأشهر خرج أخوتي وأخبرانا بأنّ ابن اختي اعتقل معهم لكن دون أن نعرف أي شيء عن مصيره حتى الآن.

مع تصاعد الأوضاع في المدينة والقيام بالكثير من الاعتقالات، فضل الكثير من الشبان الالتحاق بالجيش الحر المتمركز في المناطق القريبة، وكان منهم ابن أخي وابن أختي الثانية، كان يتابعون تعليمهم الأول كان يدرس في الثانوية الزراعية، أما الثاني فكان في السنة الثانية بكلية التربية، لكنّهم وجدو أنفسهم مخيرين بين أن يكونوا موالين للنظام أو حتى شبيحة أو يخرجوا ويلتحقوا بالجيش الحر، لم يكن خيار الموالاة للنظام مقبولاً طبعاً، والتحق الاثنان بالجيش الحر.

بعد قرابة العام، في الشهر العاشر عام 2013، وصلت الأنباء عم قيام الجيش باقتحام البلدة الموجودين فيها، في اليوم الأول وصل خبر استشهاد ابن أخي وفي الثاني خبر استشهاد ابن أختي، كانت تلك الأنباء التي كسرت العائلة حقاً، لم يستطع والدي تجاوز تلك الأحزان وتوفي بعد أشهر في العام 2014.

* * * * *

اللجوء إلى تركيا

كانت رحلة اللجوء إلى تركيا صعبة للغاية واضطررت إلى بيع كل ذهبي والاستدانة من إخوتي لدفع التكاليف، وعلى الرغم من ذلك اضطررنا لأخذ طريق خطر عبر الجدار، وبعد أربع محاولات استطعنا العبور بمشقة إلى الطرف التركي، كان الطريق صعباً للغاية وكان الخوف مسيطراً علينا، لكننا وصلنا إلى مدينة الريحانية أخيراً، وبعدها في الصباح التالي انتقلنا إلى المدينة التي نعيش بها الآن، حيث كنا قد قررنا الانتقال إليها مسبقاً.
عندما وصلنا إلى تركيا، كان أبنائي صغاراً، فابنتي الكبيرة لم تتجاوز السابعة عشرة، والثانية بعمر 15 عاماً، وابني بعمر 13 عاماً بالإضافة إلى ابنتي الصغيرتين اللتان كانتا طفلتين صغار. نزلنا فور وصولنا عند أحد أخوتي الذي كان سبقنا، وبقينا حوالي العشرين يوماً عملت خلالها ابنتَي الكبيرتان في ورشات الخياطة، حتى استطعنا جمع مبلغ صغير من المال من أجل استئجار المنزل الذي انتقلنا إليه

في تلك الفترة لم نكن أنا وبناتي قد اضطررنا للعمل سابقاً، ولم نكن قد خبرنا أجواء العمل الصعبة، قمت بالعمل مع ابنتي وابني كي أكون إلى جانبهم دوماً، كان العمل مع صاحب الورشة التركي صعباً للغاية.

كان دوامنا من الثامنة صباحاً حتى الثامنة مساءً ومع ذلك لم يكن يسمح لنا بالانصراف للمنزل حتى ننهي كل اعمال اليوم حتى لو تأخرنا لساعات بعدها، وذلك دون أن يعطينا أي أجر إضافي، كان العمل في تلك الورشة صعباً للغاية وفي شروط نفسية قاسية، عندها قررنا الانتقال إلى ورشة جديدة، كان رب العمل فيها ألطف معنا وعلى الرغم من أنّ مشاق العمل وساعاته لم تختلف كثيراً لكننا كنا مرتاحين أكثر في العمل ضمن الورشة الجديدة.

في تلك اللحظة قررت أن يترك ابني العمل ويلتحق بالدراسة، إذ كان بإمكانه الدراسة باللغة العربية في مدارس مخصصة للسوريين، وهو ما لم يكن متاحاً لابنتي الكبيرتين، كان متفوقاً في مدرسته، علاماته في الصف السادس كانت أقرب للتامة، لذلك أصريت عليه كي يلتحق بالدراسة ويترك العمل.

بعد فترة أتى شاب سوري تعرف علينا خلال العمل وطلب الزواج بابنتي الثانية، وبعد أن تعرف عليه زوجي وتعرف على عائلته وأخلاقه قبل تزويجها له، كان جيداً معها، لكنني تحسرت كيف اضطرت للزواج بعد أن كنا قد قررنا تعليم جميع أولادنا وبناتنا حتى ينهوا المستوى الجامعي، لكنّ الظروف كانت أكبر مننا جميعاً.

بعد فترة أصبت بالتعب الشديد جراء العمل المرهق واضطررت لتركه والاستقرار في المنزل، هنا أصر ابني على ترك الدراسة وهو في الرابعة عشرة والعمل من أجل مساعدتنا في حياتنا، رغم رفضي لذلك لكن الظروف مرة أخرى كانت أقوى من الجميع.

مع الأيام، استطعنا أن نعيد أبنائنا للدراسة، ابنتي الكبيرة استطاعت الحصول على الشهادة الثانوية في تركيا وهي الآن تفاضل على الجامعات، كما استطاع ابني الحصول على الشهادة الثانوية وتقدم إلى امتحان "اليوز" في تركيا وهو الامتحان الخاص بالأجانب للالتحاق بالجامعة.

خوفي الأساسي هو الآن بالنسبة لابنتي الصغيرة، دخلت الصف الأول خلال سنوات الحجر التي ترافقت مع انتشار جائحة كورونا، وهو ما جعل التعليم خلال تلك الفترة صعباً وقلل من احتكاك الطلاب مع بعضهم ومع الأستاذة ما أدى إلى عدم تعلمها اللغة التركية بشكل جيد، الآن أقوم بمساعدتها في الدراسة وهمي الأول هو تقدمها في التعليم.

قدمت جلسات الدعم النفسي التي تلقيتها في مركز العائلة التابع لرابطة معتقلي ومفقودي سجن صيدنايا، الكثير من الراحة والطمأنينة لي، إذا كنت أريد اختصار نظرتي إليها بكلمة واحدة، فهي البيت، مركز العائلة كان مثل البيت لنا، وكانت تلك الجلسات فرصة لنتعرف على بعضنا البعض وسرد همومنا وتحسن أوضاعنا النفسية والتخلص من القلق الذي كان يسيطر علينا منذ سنوات.

كان هناك كابوس يأتيني بشكل شبه يومي، أرى نفسي أهرب مع عائلتي من قصف الطائرة، التي تضرب المنازل حولنا، بعد جلسات الدعم النفسي بدأ هذا الكابوس بالزوال ولم أعد أره مجدداً، كما أنني حلمن بمنزلنا كما كان في السنوات السابقة للأحداث، منزلاً جميلاً وهادئً كان حلماً أبهجني للغاية.

بالنسبة لي تحقق العدالة هو الاقتصاص ممن ظلومنا وهجرونا من بيوتنا، أما أحلامي فهي نجاح بناتي وإبني في الدراسة، هذه أكبر أحلامي الآن.

رابطة معتقلي و مفقودي سجن صيدنايا
Association of Detainees & Missing in Sednaya Prison